(١٣) ذو النون المصري[١]

ذكر أبي الفيض ذو النون المصري رحمه الله تعالى:

كان رحمه الله من سلاطين أهل الطريق، مُبارزًا في ميادين البلاء والملامة[٢]، وله في أسرار التوحيد نظرٌ دقيق، وكان له سلوكٌ كاملٌ، ورياضاتٌ عجيبةٌ، وكرامات غريبة، لكنَّ الناس كانوا متحيِّرين في شأنه، وبعضُ الجهّال من مصر ينسبون إليه الزندقةَ ويُنكرونه، ولم يطَّلِع أحدٌ على حاله ما دام باقيًا، وكان يخفي أحوالَه من الناس.

وكان سببُ توبته أنه سمع زاهدًا في مكانٍ، فقصده، فرآه قد علّقَ نفسَه في شجرةٍ، ويقول: يا جسدي، ساعدني ووافقني على طاعة الله تعالى، وإلاّ أَذرُكَ على هذه الحال حتى تموتَ من الجوع. قال ذو النون: وغلبَ عليَّ البكاءُ، فأحسَّ الزاهدُ ببكائي، فقال: من الذي ترحَّمَ على شخصٍ قليلِ الحياء كثيرِ الجرم؟ قال ذو النون: فتقدَّمتُ إليه، وسلّمتُ عليه، وقلت: ما هذه الحالة؟ قال: جسدي لا يستقرُّ على الطاعة، ويريدُ الاختلاطَ مع الخلق. قال ذو النون: ظننتُ أنَّك قتلتَ مسلمًا بريئًا من ذلك، أو صدرَ منك كبيرةٌ أخرى. قال الزاهد:

---

(١) طبقات الصوفية ١٥، حلية الأولياء ٩/ ٣٣١، و١٠/ ٣، تاريخ بغداد ٨/ ٣٩٣، الأنساب ١/ ١٣٥، الرسالة القشيرية ٣٧، مناقب الأبرار ٥٩، صفة الصفوة ٤/ ٣١٥، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٣٣١، اللباب ١/ ٣٥، تاريخ دمشق ١٧/ ٣٩٨، وفيات الأعيان ١/ ٣١٥، مختصر تاريخ دمشق ٨/ ٢٤٦، سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٣٢، العبر ١/ ٤٤٤، الوافي بالوفيات ١١/ ترجمة ٣٧، مرآة الجنان ٢/ ١٤٩، البداية والنهاية ١٠/ ٣٤٧، طبقات الأولياء ٢١٨، نفحات الأنس ٤٦، النجوم الزاهرة ٢/ ٣٢٠، طبقات الشعراني ١/ ٧٠، الكواكب الدرية ١/ ٥٩٧، شذرات الذهب ٢/ ١٠٧، ولابن عربي كتاب عنه اسمه: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، كما للسيوطي أيضاً عنه كتاب اسمه: المكنون في مناقب أبي الفيض ذي النون.

(٢) انظر الحاشية (٢) صفحة ٤٠٢.

أما علمتَ أنَّ من اختلطَ مع الناس لا يقدرُ على أن يحترزَ عن شيءٍ، إذِ الاختلاطُ مع الناس رأسُ كلِّ خطيئةٍ. فقلت: بلغَ زهدُك إلى غايةِ الحدِّ ونهايته. قال: تريد أن ترى زاهدًا؟ قلت: نعم. قال: اطلعِ الجبلَ. فلمّا طلعتُهُ رأيتُ شابًّا في صومعةٍ، وقد قطع إحدى رجليه، ورماهاَ خارجَ الصومعة، ووقعتْ فيها الدُّودُ تأكلُها، تقدَّمتُ إليه، وسلَّمتُ عليه، وسألتُ عن الحال، قال: كنتُ جالسًا في هذه الصومعةِ، إذ مرّتِ امرأةٌ بحذاء صومعتي، فمالَ إليها فؤادي، وتقاضاني قلبي أن أذهبَ خلفها، فلمّا وضعتُ إحدى رجليَّ خارجَ الصومعة، سمعتُ: أنّك لا تستحي، بعد أن عبدتَ اللهَ تعالى ثلاثين سنةً، اليومَ تقصدُ إطاعةَ الشيطان، وفعلَ الفاحشة. فقطعتُ تلك الرِّجْلَ الخارجةَ في الحال، وأنا جالسٌ مُنتظرًا ما يُصيبني، وماذا يُصنع بي، ثم أنت لِمَ جئتَ إلى المُذنبين؟ وتقرَّبتَ إليهم؟ فإن أردتَ الالتقاء بشخصٍ من الرجال اصعدْ قُلَّةَ[١] هذا الجبل. قال ذو النون: كان الجبلُ عاليًا، وما تيسّرَ لي الصعود، واستخبرتُ من أحواله، قالوا[٢]: شخصٌ هناك مشغولٌ بالعبادة من زمانٍ، ووقع في قلبه شيءٌ، فتولّه في عبادةِ الله تعالى، حتى أنَّ رجلاً كان يُناظره في اليوم الثاني: أن الرزقَ، سببُ الكسب أم لا؟ فنذر أن لا يطعمَ شيئًا حصلَ بكسبِ الإنسان، ومضى عليه أيامٌ، وما أكلَ شيئًا، حتى أن أرسلَ الله تعالى طائفةً من النحلِ، كانت تطوفُ حولَه، وتُطعمُهُ العسل. قال ذو النون: حصل في قلبي من هذا شيءٌ عظيم، وصار حزنٌ لي عشرة أمثاله، وعلمتُ أن من يتوكّلُ عَلى الله فهو حَسْبُه ويكفيه ولا يُضيِّعُ عمله.

ثم كنت سائرًا في طريق، إذ رأيتُ طائرًا فاقدَ البصر، قاعدًا على غصن شجرةٍ، فتعجّبتُ من حاله أنه ماذا يأكلُ؟ وكيف يتعيّش؟ كنتُ متفكّرًا في أمره، إذ نزلَ من الغصن[٣]، ووقع على الأرضِ، ونبشَ، فطلع قصعتان: إحداهما من الذهب وفيها السُّمسم، والأخرى من الفضة وفيها ماءُ الورد، التقط الطائرُ من

(١) قلّة الجبل: أعلى الجبل.
(٢) في (ب): قال شخص.
(٣) في (أ): إذ فرّ مِنْ أن، ووقع على الأرض.

حبّات السمسم حتى شبع، وشربَ من ماء الوردِ، وطار إلى مكانه من الغصن، واختفتِ القصعتان في الأرض، فحصل لي حالةٌ عظيمة، وتحقّقتْ توبتي، ووصلت من التوكُّلِ إلى الغاية القصوى.

نقل أنه ذهبَ مع جماعةٍ، فوصلوا خربةً، فدخلوا فيها، رأوا هنالك بمُسوَّفة[١] مملوءةٍ من الذهب والجواهر النفيسة، وعلى رأسها لوحٌ من الخشبِ مكتوبٌ عليه (الله)، فلمّا رأوا ذلك اشتغل أصحابُهُ بقسمة المال، وهو أخذ اللوح، وقال: عليه اسمُ الحبيب. فجعلَ يُعزِّزُهُ ويُكرمه ويقبّله، ولم يحصل له ميلٌ إلى الذهب والفضة لصدق توبته، وتمامِ عزيمته، فرأى في تلك الليلة في المنام كأن قائلاً يقول له: يا ذا النون، اشتغلَ كلٌّ من أصحابك بالذهب والجواهر ورغبَ فيهما، وأنت اكتفيت باسمي المكتوبِ على ذلك اللوح، لا جرم فتحنا عليك أبواب علم الحقائق وكشف الدقائق.

قال: كنت سائرًا جنبَ ساقيةٍ أو نهر، انتهيتُ إلى منظرةٍ عالية هناك، فتوضَّأتُ ورجعت، فوقع نظري على المنظرة، فرأيتُ فيها جاريةً في غاية الحُسن والجمال، أردتُ امتحانها، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ قالت: يا ذا النون، لمَّا رأيتُكَ بادي الرأي ظننتُكَ مجنونًا، فلمّا صرتَ قُربنا[٢] ظننتُكَ عالمًا، ثم لمّا صرتَ أقربَ ظننتُكَ عارفًا، والآن تبيّنَ الحالُ، وانكشفَ الأمرُ فما أنت بمجنونٍ ولا عالمٍ ولا عارف. قلت: كيف هذا الشأن؟ قالت: فلو كنت مجنونًا لما توضَّأتَ، ولو كنت عالمًا لما نظرتَ إلى غيرِ محرمِكَ، ولو كنتَ عارفًا لَمَا نظرتَ إلى غير الله، ولَمَا التفتَّ إلى ما سوى الحقِّ جلَّ وعلا. قالت هذا الكلام وغابتْ عن النظر، علمتُ أنّها ما كانت من البشر، فوقع في قلبي حريقٌ، وسرتُ إلى ساحل البحر، وصادفتُ جماعةً يُريدون ركوب

---

(١) المُسوَّفة: البئر، التي يُقال: سوف يوجد فيها الماء. وظني أنها: مَسوفة: أي زنبيل سُفَّ (نسج) من الخوص.

(٢) في (ب): يا ذا النون، فلمّا رأيتك بادي الرأي ظننتك مجنونًا، فلمّا صرتَ قريبًا ظننتك مجنونًا، فلمّا صرت قربنا.

سفينةٍ، فركبتُ معهم، فبعد زمانٍ ضاعَ لتاجرٍ في السفينة دُرَّةٌ، وكانوا يفتّشون الناس واحدًا واحدًا، حتى اتّفقَ الكلُّ أنها عندي، وشرعوا يُؤذونني ويحقِّرونني ويستخفُّون بي، وأنا كنت ساكتًا صامتًا إلى أن جاوزوا الأمرَ من الحدِّ، فنظرتُ في البحر، فإذا ألوفٌ من السمك أطلعَتْ رؤوسَها من البحر، وفي فمِ كلِّ واحدٍ منها دُرّةٌ، قال ذو النون: فأخذتُ واحدةً منها، وأعطيتُها التاجرَ، وأهلُ السفنية شرعوا في الاعتذار وعظّموه، ولذلك سُمّي ذا النون.

حُكي أنّه كانت له أختٌ، صارتْ من بركته إلى أنها يومًا قرأت هذه الآية: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ [البقرة: ٥٧] ونظرَتْ إلى السماءِ وقالت: إلهي، أنزلت على بني إسرائيل المنَّ والسلوى، وما أنزلتَ على أمّة محمدٍ عليه الصلاة والسلام، بعزّتك يا ربّ لا أقعدُ من القيام حتى تُنزلَ عليَّ من المنِّ والسلوى. فأنزل الله تعالى عليها المنَّ والسلوى من الرَّوزنة[1]، فخرجتْ من البيت، ودخلتِ الباديةَ، وما رأوها بعد ذلك.

نقل أنه قال: كنت أسيرُ في الجبلِ، فرأيتُ هناك جماعةً ابتلاهم الله تعالى ببليّاتٍ، فقلت لهم: وما أصابكم؟ ولِمَ اجتمعتم هنا؟ قالوا: هنا شيخٌ في صومعةٍ، يطلعُ منها في كلِّ سنةٍ مرَّةً، ويدعو لهؤلاء المُضطرّين، ويشفيهم اللهُ تعالى ببركة دعائه، ثم يدخلُ الصومعةَ إلى سنةٍ أخرى، قال ذو النون: فصبرتُ هناك حتى طلعَ، فرأيتُ شخصًا مصفرَّ اللون ضعيفًا، غارتْ عيناه، فوقعتْ من هيبته رجفةٌ على الجبل، ونظر إلى هؤلاء، ثم نظرَ إلى السماء، فشفاهم اللهُ تعالى في الساعةِ، فأرادَ أن يدخلَ للصومعة، فتعلّقتُ بذيلِهِ، وقلت له: لله تعالى عالجْتَ العلَّة الظاهرة، فعالجِ العلّةَ الباطنة. فنظر إليَّ، وقال: يا ذا النون، اتركْ ذيلي؛ فإنَّ الحبيبَ ينظرُ إليك من أوجِ العظمة والجلال، ويعلمُ أنَّك تعلّقتَ بغيرِهِ، ثم يتركُكَ إلى ذلك الشخص، ويتركُهُ لك، ويُهلكُكُما جميعًا. فقال هذا ودخلَ الصومعة.

---

(١) الرَّوْزَنة: الكوة النافذة، الخرق بأعلى السقف، جمع روازن. متن اللغة (رزن).

نقل أنه دخلَ عليه أصحابُه يومًا، رأوه يبكي، فقالوا: وما يُبكيكَ يا شيخ؟ قال: نعستْ عيني في السحور[١]، فرأيتُ الله تعالى في النوم، قال لي: يا أبا الفيض، خلقتُ الخلقَ على عشرة أجزاء، فعرضْتُ عليهم الدنيا، فتوجّه إلى الدنيا تسعةُ أجزاءٍ منها، ثم قسمتُ الجزءَ الباقي عشرةَ أجزاء، وعرضت الجنّة عليهم، فمالَ إليها تسعةُ أجزاءٍ منها، ثم بقي جزءٌ واحدٌ، فجزّأتُ هذا الجزء عشرةَ أجزاء، وعرضت النار عليهم، فهربَتْ تسعةُ أجزاءٍ من النار، وبقي جزءٌ واحد، فإنّهم لم ينخدعوا بالدنيا، وما اغترُّوا بها، ولا مالوا إلى الجنّة، ولا هربوا من النار، فقلت: ماذا تَطلبون؟ فرفعوا رؤسَهم وقالوا: أنت تعلم ما نُريد يا ربَّنا.

ونقل أنه جاء إليه صبيٌّ، وقال: ورثتُ مئة ألف دينار، أُريد أن أصرفها في صُحبتك. قال الشيخ: بلغتَ الحُلم؟ قال: لا. قال: فلا آذن[٢] حتى تبلغَ؛ فإنّه لا يجوز لك الآن أن تتصرَّفَ في مالك. فلمّا بلغَ جاءَ إليه، وتابَ على يده، وصرف المالَ كلَّه في مجلسه إلى أن ظهرَ لبعض المُريدين يومًا حاجةٌ، ولم يكن لهم دينارٌ يَصرفونه فيها، فقال الصبيُّ صاحبُ المال: يا ليتَ لي مئةَ ألف دينار أُخرى لأصرفها على هؤلاء الفقراء. فسمع ذو النون هذا الكلام من الصبيِّ، فقال: هو ما وصلَ بعدُ إلى حقيقة الأمر، وللمالِ عنده اعتبار. فدعاه، وقال له: اذهبْ إلى العطار الفلاني، وقل له منّي أن يُعطيكَ بثلاثة دراهم نسيئةً الأدويةَ الفُلانية. فجاء بها، فأمره أن يدقَّها في الهاون ويخمِّرَها بدهنٍ، ويجعلها ثلاثَ حبات، ففعل، وأشار إليه أن يثقبها بإبرةٍ، فامتثل الأمرَ، وجاء بالحبَّاتِ إلى الشيخ، فأخذ الشيخ بيده، ونفخَ فيها، فصارتَ ثلاثَ قطعٍ من الياقوت، ما رأى مثلَها أحدٌ، ثم قال: اذهبْ بها إلى السوق، وثمّنها، ولا تبعْ، وأت بها. فذهب، وجاء وأخبر: أنَّ أهلَ الخبرة قوّموا كلاً منها بألف

---

(١) في (أ): عيني في السجود.

(٢) في (أ): فلا إذن.

دينار، فقال الشيخ: اسحقْها في الهاون، وارم السحاقةَ في الماء، ثم قال: يا صبيُّ، لا تظنَّنَّ أن الفقراء جائعون بسبب القِلَّة، لكنْ على الاختيار. فلمّا علمَ الصبيُّ هذا الحال حصلَ له تمتين[١]، وما بقي للدنيا والدنيوي عنده اعتبارٌ ولا مقدار

نقل عنه أنه قال: دعوتُ الناس إلى الله تعالى ثلاثين سنة، فأجابني كما ينبغي شخصٌ واحدٌ، وكان من قصَّته أنَّ واحدًا من أبناء الملوك كان يمرُّ من موكبه بباب مسجدي[٢]، وأنا كنتُ أتكلَّمُ بهذا الكلام: ليس أكثرُ حمقًا من ضعيفٍ يُخاصم قويًا. فدخل المسجد، وقال: كيفَ قلتَ يا شيخ؟ أعدتُ الكلام، قال: وما معناه؟ قلت: الضعيفُ هو الإنسان، والقويُّ هو الله تعالى. فلما سمع المقالَ تغيَّرَ لونُهُ، وقام، وخرج وجاء في اليوم الثاني، وقال: كيف الطريقُ إلى الله تعالى؟ قلت: طريقٌ دقيقٌ، وطريقٌ آخرُ أدقُّ منه، أيُّهما تختار؟ قال: وكيف الدقيق؟ وكيف الأدقُّ؟ قلتُ: أما الدقيق فتركُ الدنيا والشهوات والذنوب، وأمّا الأدقُّ فتركُ ما سوى الحقِّ، وإفراغُ القلبِ من جميع ما سوى الله. قال: واللهِ لا أختارُ إلاّ طريقَ الأدقِّ. فجاء في اليوم الثالث[٣]، ولبس صوفًا، واشتغلَ بالعلم[٤] حتى صار من الأبدال

قال أبو جعفر الأعور: كنت عند ذي النون، وجماعةٌ من أصحابه حضورٌ، وتكلّموا في طاعة الجمادات للوليِّ، وكان هناك سريرٌ، فقال ذو النون: طاعةُ الجمادات للأولياء تكون مثل أن أقولَ لهذا السرير دُرْ في هذا البيت، فيتحرَّكُ ويدورُ. فالسريرُ في ساعةٍ تحرَّكَ، ودارَ في البيت كلِّه، ورجع إلى مكانه، وكان هناك شابٌّ بكى حتى تُوفّي إلى رحمة الله تعالى، وغُسِّلَ على السرير ودُفن.

نقل أنه جاء إليه رجلٌ، واشتكى من الدَّين، وقال: لا أجدُ شيئًا أصرفُهُ في

---

(١) في (أ): حصل له يقين.

(٢) في (أ): بباب المسجد الذي كنت فيه.

(٣) في (ب): في اليوم الثاني.

(٤) في (أ): واشتغل بالعمل.

وجه الدين. فأخذ ذو النون حَجرًا من الطريق، وأعطاه الرجلَ، وقال: اذهب به إلى السوق وبعْه، واقضِ به دينَك. فذهب الرجل بالحجرِ إلى السوق، فإذا هو زبرجدٌ، فباعه بأربع مئة درهم، وقضى به دينه.

قيل: كان شابٌّ يُنكر الصوفية، فأعطاه ذو النون خاتمًا، وأمره بأن يذهبَ به إلى السُّوق، ويرهنَهُ بدرهمٍ، فإذا هو لم يثمّنْ دِرهمًا، فقال له الشيخ: اذهبْ به إلى سوق الجوهرية، وانظر ماذا يقولون. فإذا هم ثَمّنوه بألف دينار، فرجع الشابُّ إلى الشيخ، وأخبره الحال، فقال الشيخ: معرفتُكَ بالصوفية كمعرفةِ غير الجوهرية بهذا الخاتم.

نقل أنه اشتهى السَّكباج[1] عشر سنين، ومنع النفس عن هذا المُشتهى إلى أن اتَّفَقَ يوم عرفة، والنفسُ طلبتِ السكباج، وغلبت عليه، فقال ذو النون: يا نفسُ، إن وافقتني الليلة، وهي ليلةُ العيد، على أن أختمَ القرآن في ركعتين غدًا أُوصلْكِ إلى مطلوبك. فقبلتِ النفسُ، ورضيتْ به، فصلّى ركعتين، وختم القرآن فيهما، ثم في ثاني اليوم، وكان يوم العيد، طبخَ سكباجًا، ووضع عنده، وأخذ لقمةً وقرَّبَها من الفم، ثم أعادها إلى القصعة، ومسحَ الأصابع، وقامَ إلى الصلاة، فقيل له: كيف يا شيخ؟ قال: فرحتِ النفسُ وقالت: حصلَ مقصودي بعد عشر سنين، فقلتُ لها: لا واللهِ ما وصلتِ.

قال الراوي: كان الشيخ في هذه الحالة إذ دخلَ شخصٌ، ومعه قدرٌ من السَّكباج، ووَضَعَ بين يدي ذي النون، وقال: يا شيخُ، ما جئتُ به إليك من تلقاءِ نفسي؛ بل أنا قاصدٌ إليك، فاعلمْ أنّي رجلٌ حمّالٌ، ولي أهلٌ وعيال، وكانوا يَطلبون منّي السكباج، وما كانَ يحصلُ لي ثمنه إلى أن اجتهدتُ في تحصيله ليوم العيد، فطبخناه، ورأيتُ الرَّسولَ ﷺ في المنام، قال: إنْ أردتَ أن تَراني غدًا، اذهبْ إلى ذي النون، وقل له: يقولُ محمد بن عبد الله أنا أشفعُ عندك لتتصالحَ مع نفسك طرفةَ عينٍ، وتُطعم لقيماتٍ من السكباج. فبكى ذو النون، وقال: أَمتثل أمر النبيِّ عليه السلام.

---

(١) السّكباج: معرب (سركه باجه) وهو لحم يُطبخ بخلٍّ.

روي أنه لما تَرقّى أمرُهُ وعَظُمَ شأنُه[١]، وحسده بعضُ الناس، وسعوا به إلى المتوكِّل[٢]، فاستحضرَهُ المتوكّل إلى بغداد، فلمّا وصلَ إلى باب الخليفة، قال: تعلّمتُ الإسلام في الطريق من عجوزةٍ، والفتوّةَ من سقاء. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لمّا رأيتُ حشمةَ الخليفة، وكثرةَ الحجّابِ والغلمان على باب الخليفة كدتُ أن أتغيَّرَ، قالت عجوزةٌ: انظروا إلى هذا الشخص، فإنّه يذهبُ إلى الحبسِ، والحالُ أنّه والذي أمرَ بحبسِهِ عبدان ومملوكان لسيّدٍ واحدٍ جلّ جلاله وعزَّ شأنه، فإن لم يُؤلمْهُ الله لا يقدرُ أحدٌ على أن يؤلمَهُ، وأيضًا استقبلني سقّاءٌ، وناولني شربةَ ماءٍ، وأنا أشرتُ إلى صاحبٍ لي بإعطاءِ شيءٍ، فلم يقبلِ السقاء، وقال: هو أسيرٌ محبوس مُقيّدٌ، وليس من الفتوة أخذُ شيءٍ منه. ثم برزَ مرسومُ الخليفة ليُحبسَ، فبقي في الحبس أربعين يومًا، وكانت أختُ بشر الحافي تُرسلُ له كلَّ يومٍ رغيفًا، تذهب به إلى باب الحبس، وتعطي البوّابَ ليوصلَه إليه، فلمّا طلعَ من الحبسِ كان هنالك أربعون رغيفًا، إذ ما أكل شيئًا، فقيل: إنَّ أختَ بشرٍ لم تبعثْ إليك إلاّ وجهًا حلالاً؟ قال: نعم، ولكن وصلَ إليَّ على يدٍ ليست نظيفة ـ يعني يد السجان.

قيل: حين خرجَ من السجن سقطَ على وجهه، وانكسرت جبهتُهُ، وجرى الدم، وما تلطّخ به وجهُهُ ولا ثيابُه، ولا رأوا على الأرضِ أيضًا منه قطرةً، فأدخلوه على الخليفة، وهو سأل منه جوابَ مسائلَ استشكلها المفسّرون، فشرع في الشرح، ووعظ الخليفة، حتى بكى، وردَّه مُكرمًا مُعزّزًا، وتعجّب الحاضرون من فصاحته وبلاغته. والله أعلم[٣]

نقل أنه رأى أعرابيًا في الطواف ضعيفًا نحيفًا، يبسَ جلدُه على عظمه، فقال له: أمحبٌّ أنت؟ قال: نعم. قال: حبيبُكَ قريبٌ أم بعيد؟ قال: قريب. قال:

---

(١) في (ب): وعظم شغله.

(٢) المتوكل: جعفر بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون الرشيد، أبو الفضل (٢٠٦ ـ ٢٤٧) تولّى الخلافة العباسية سنة ٢٣٢هـ.

(٣) قوله: والله أعلم من (أ) فقط.

مُوافقٌ أم مُخالف؟ قال: بل مُوافق. قال ذو النون: فلِمَ هذه المحبة؟ قال الأعرابي: ألم تعلم بأنَّ المُوافقةَ والقربَ أَصعبُ وأشدُّ من البعدِ والمُخالفةِ ألف مرة!

نقل أنه قال: سألتُ في بعض أسفاري امرأةً عن غاية المحبّة، فقالت: يا بطّال، هل للجنّة غاية؟ قلت: وما معنى هذا الكلام؟ قالت: لأنَّ لُطفَ المحبوب لا غايةَ له.

قيل: إنّه كان مريضًا، فعاده شخصٌ، وقال له: ألمُ الحبيب طيّبٌ. فتغيّر ذو النون من ذلك، وقال: لو عرفتَهُ لما ذكرتَهُ بهذه السهولة.

نقل أنه كتب إلى بعض إخوانه: سترنا الله وإيّاكَ بسترِ الجهل[1]، وجعلنا وإيّاك في ذلك الستر شُغولاً[2] بتحصيل مرضاته، إذ له كثيرٌ من الأولياء في زيِّ الأعداء.

أقول: وفائدتُه أن تكون مستورًا من الأغيار، محفوظًا من الاشتهار؛ فإنّ الشهرةَ سببٌ للعُجبِ، رُوي عن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال: الخمولةُ نعمة، وكلٌّ يتوقّاها، والشهرةُ آفةٌ وكلٌّ يتولاّها [والله أعلم].

نقل أنه قال: كنتُ سائرًا في بعض الأسفار، وكان في يومٍ من أيام الشتاء، فوافيت شخصًا مجوسيًّا مغطي على رأسه بغطاءٍ للبرد، وهو يدورُ على الثلج، ويفرّقُ الأرزن، قلت له: ماذا تفعل يا فلاح؟ قال: الطيورُ في مثل هذا اليوم لا تجدُ حبّاتٍ تلتقطُها، وإنّي أزرعُ لهم هذا البذر، لعلّه ينبتُ، وأنتفعُ به يومًا، ويرحمني اللهُ بسببه. قلتُ: أنت أَجنبيٌّ، والبذرُ الذي يَزرعُهُ الأجنبيُّ لا ينبت ولا يُستغلُّ منه. قال: فإن لم يقبلْ منّي، فإنه يَراني ويرى ما أَصنع؟ قلت: نعم. قال: حسبي هذا. قال ذو النون: ذهبتُ إلى مكّة شرّفها الله تعالى حاجًّا، فرأيتُ ذلك المجوسيَّ عاشقًا هائمًا في الطواف، فلمّا رآني قال لي: يا أبا

(١) في (أ): بستر الجميل.
(٢) في ب: مشغولاً.

الفيض، رأيتَ أنّه رأى صنيعي، وتقبّل منّي، وأنبتَ لي ما زرعتُ، وجعلني وليًّا عارفًا، وأخرجني من تيه الأجنبية إلى مقامِ المعرفة، ودعاني إلى بيته؟! فاضطربتُ من هذا الحال، قلت: إلهي، تقبلُ مجوسيًّا بحفنة أرزن بعد أن عبر عمرُهُ أربعين سنة في المجوسية؟ فسمعت هاتفًا يقول: أما علمتَ أنَّ من دعاه دعاه بغير علّةٍ، ومن طردَهُ طرده بلا علّةٍ؟ فأنت يا ذا النون لا تتعجّبْ من هذا، فإنّ من هو فعّالٌ لما يُريد شأنُهُ لا يَستقيمُ في نظر العقل؛ بل هو ما وراء إدراك العقول

أقولُ: قد أحسنَ المقال من قال:

دع الاعتراضَ فما الأمرُ لَكْ ... ولا الحكمُ في حركاتِ الفَلَكْ
ولا تَسألِ اللهَ عن فعلِهِ ... فمن خاضَ لجَّةَ بَحرٍ هَلَكْ[1]

والله أعلم.

نقل أنه قال: كان لي صديقٌ توفّي، فرأيتُه في المنام، وقلت له: مافعل اللهُ بك؟ قال: رحمني بسبب أنّي كنتُ مترددًا إلى مجلسك

نقل أنه قال: ما نسيتُ الماءَ والخبز أصلاً، وما شبعتُ منهما إلاّ وصدر منّي معصيةٌ، أو وجدتُ في نفسي قصدَ معصيةٍ.

نقل أنه كلّما أرادَ القيامَ إلى الصلاة، كان يقول: إلهي، بأيِّ قدمٍ أجيءُ إلى بابك؟ وبأيّ عينٍ أنظرُ في قبلتك؟ وبأيِّ لسانٍ أذكر ثناءك وأذكر اسمك؟ اتخذتُ لي رأسَ مالٍ مِنْ فقدِ رأسِ المال، وجئتُ إلى باب لطفك. إلهي، فإنّي مضطرٌّ فاقبلني، ومن تُرابِ المذلّة ارفعني.

وكثيرًا ما يقول في المناجاة: اللهم لا تعذّبني بذلّ الحجاب.

---

(١) ذكره العيني في كتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ٢/ ٣٤ من غير عزو، وفي البداية والنهاية ١٣/ ٢٥٣ أضاف بيتًا ثالثًا هو:

إليه تصيرُ أمورُ العباد ... دع الاعتراض فما أجهلك

ومن كلماته أنه قال: إلهي، جعلتَ أهلَ المعرفة محجوبًا من خلق الدنيا بحُجُبِ الآخرة، ومن خلقِ الآخرة بحجب الدنيا.

لا تسكنُ الحكمةُ في معدةٍ مملوءةٍ من الطعام.

الاستغفارُ بلا تركِ الذنب توبةُ الكذّابين.

طوبى لمن استعدّ بالورع، وطهرَتْ نفسُه من الطمع، ويُحاسب نفسه فيما صنع.

صحةُ الجسد في قلّةِ الأكل، وصحّةُ الروح في قلّة الذنوب.

الناسُ ما داموا في الخوفِ هم على الطريق، فإذا ذهبَ الخوف من قلوبهم ضلّوا عن الطريق.

علامةُ غَضَبِ الحقِّ على شخصٍ خوفُهُ من الفقر.

الفسادُ يدخلُ في السالك من ستّة أشياء: الأول: ضعفُ النيّة بعمل الآخرة.

الثاني: الحرصُ في الشهوات.

الثالث: طولُ الأمل مع قُربِ الأجل.

الرابع: اختيارُ رضا الخلق على رضا الحقِّ.

الخامس: مُتابعة الهوى والبدعة، وتركُ السُّنة والشريعة.

السادس: أن يجعلَ زلاّتِ اللسان حجةً له، وينسى مناقبَهُم، ويُظهرَ الفسادَ بذلك بين الخلق.

لا عيشَ إلاّ مع من يكون طبعُهُ مُشتهيًا للتقوى، ويفرحُ بذكر الله تعالى.

اختر الصداقة مع من لا يتغيّرُ بتغيّرك.

إذا أردتَ المُصاحبة مع الإخوان فكنْ معهم كالصدّيقِ رضي الله عنه مع النبيِّ ﷺ؛ فإنّه لم يخالفْه في الدِّين والدنيا، لذا سمّاه الله تعالى صاحبًا[1].

---

(١) هو قوله تعالى في سورة التوبة الآية (٤٠): ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا...﴾ الآية.

علامةُ رجال الله تعالى متابعةُ حبيبه محمدٍ ﷺ في الأخلاقِ والأفعال والخصال، والأوامر والنواهي.

لا تصحبْ مع الله تعالى إلاّ بالموافقة، وبالخلقِ إلاّ بالمناصحة، وبالنفس إلاّ بالمخالفة، وبالعدو إلاّ بالعداوة.

أقول: مُرادُه بالعدوِّ هو الشيطان لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] **والله أعلم.**

وقال: ما رأيتُ طبيبًا أجهلَ ممّن يعالج سكرانَ وقتَ سُكره. يعني من صار سكران من محبّة الدنيا لا تنفعُه المعالجةُ حالةَ سكره. أي حال حبّه الدنيا.

ما أعزَّ اللهُ عبدًا إلاّ أراه حقارةَ نفسه، وما حقرَ عبدًا إلاّ جعلَ نفسَهُ عليه عزيزًا حتى لم يطّلع على ذلّها.

لا تمتنعُ النفسُ من الشهوات إلاّ بعد حفظِ الحواس، كالعين والأذن وغيرهما.

إذا كان لك أنسٌ بالخلقِ فلا تطمعْ في أنس الله تعالى.

ما رأيتُ شيئًا أقربَ إلى الإخلاص من الخلوة.

منِ اختارَ الخلوةَ فقد تعلّقَ بعمود الإخلاص، وآوى إلى ركن شديد.

من الصدق بأوّلِ القدم تجد ما تطلب. يعني: إن لم تجدْ في أولِ القدم، فاعلم أنّك بعدُ ما دخلتَ في هذا الطريق، وإن بقي من وجودِك أثرٌ فذلك علامةُ أنّك بعدُ ما دخلتَ في هذا الطريق.

سيّئات المقرّبين حسناتُ للأبرار.

أقول: وهذا موافقٌ للحديث، إذ وردَ فيه: «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين[1]» والله أعلم.

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفا ١/ ٤٢٨ (١١٣٧): هو من كلام أبي سعيد الخراز، كما رواه ابن عساكر في ترجمته، وعدّه بعضُهم حديثًا، وليس كذلك. انظر صفحة ٦٣٩.

نقل أن أرواحَ الأنبياء كانت في ميدانِ المعرفة، فتقدّمهم روحُ نبيّنا ﷺ، فوصلَ إلى روضة الوصال.

لا يُعطى محبٌّ كأسَ المحبّة إلاّ بعد أن تحرق نارُ الخوف[١] قلبه.

لكلِّ شيءٍ عقوبةٌ، وعقوبة المحبِّ الغفلةُ عن الذكر.

قيل له: منِ العارف؟ قال: شخصٌ من الإنسان، متميّزٌ عن الإنسان.

خشوع العارف يزدادُ كلَّ ساعةٍ؛ لأنه يتقرَّبُ إليه كلَّ لحظة.

العارفُ الخائف خيرٌ من العارف الواصف. يعني من وصفَ نفسه بالمعرفة، إذ لو كان عارفًا لكان خائفًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] أي: العلماء به، ولو كان خائفًا لكان ساكتًا.

من عرف الله كَلَّ لسانُه[٢].

العارفُ لا يكون صاحبَ حالٍ واحد؛ لأنّه يردُ عليه في كلِّ ساعةٍ حالٌ أُخرى ووارِدٌ آخرُ، فلا جرمَ يكون صاحب أحوالٍ لا صاحبَ حالٍ واحدٍ.

أدبُ العارف فوقَ الأدب؛ لأنَّ المعرفة تؤدّبُه.

المعرفة على ثلاثة أصناف: معرفةُ التوحيد، وهي تكون لعامَّةِ المؤمنين. ومعرفةُ الحجّة والبيان، وهذه تكون للحكماء والعلماء. ومعرفة صفات الوحدانية، وهي للأولياء، وهم جماعة يشهدون الحقَّ بقلوبهم، وهو حينئذٍ يظهر عليهم حقيقة العرفان للاطلاع على الأسرار مع اتصالِ أنواع المعرفة؛ لأنّ الشمس لا تُدرك بالشمس.

و: إياك ودعوى المعرفة، فإنَّ المُدّعي كذّاب.

وأيضًا: فإنِ ادّعيتَ فلا يخلو إمّا أن تكونَ صادقًا أو كاذبًا، فإن كنت صادقًا

---

(١) في (أ): تحرق نار المحبة.

(٢) انظر صفحة ١٢٣، وسيأتي هذا من قول أبي يزيد صفحة ٢١٧.

فالصادق لا يمدحُ نفسه لِمَا رُوي عن الصدّيق[١] رضي الله عنه أنه قال: لستُ بخيركم[٢].

أقول: وروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال لأصحابه رضوان الله عليهم: «لا تفضّلوني على يونس بن متى[٣]» وأيضًا روي أنه قال ﷺ: «من قالَ إنّي خيرُ الناسِ فهو شرُّ الناس، ومن قال أنا في الجنة فهو في النار[٤]» والله أعلم

وإن كنت كاذبًا فيسحتُكَ كذبُكَ، والكاذبُ لا يكون عارفًا.

من كان بالله أعرفَ كانَ تحيُّرُهُ أكثرَ؛ لأنَّ من هو أقربُ إلى الشمس كان تحيُّرُهُ فيها أكثر.

وسئل: من صفات العارف. قال: من لا يشاهدُ نفسَه في علمٍ ولا في عينٍ ولا في حياةٍ ومشاهدةٍ ووصفٍ وكشفٍ وحجابٍ، فهم لا يكونون بهم؛ بل يكونون بالحقِّ، وبه سكونُهم، وبه كلامُهم، كلامُهم كلامُ الحقِّ جارٍ على ألسنتهم، ونظرُهم نظرُ الحقِّ جارٍ من أعينهم، ثم قال: مصداقُهُ ما رُوي عن النبيِّ ﷺ: «لا يزال العبد يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتَّى أُحبَّه، فإذا أحببتُهُ كنتُ سمعَه الذي يسمعُ وبصرَهُ الذي يُبصر. . .» الحديث[٥].

الزاهدون هم سلاطينُ الآخرة، والعارفون هم سلاطين الزهاد.

---

(١) في ب: يمدح نفسه مما روي عن النبي عليه السلام.

(٢) قول أبي بكر رضي الله عنه جزء من خطبته بعد بيعته بالخلافة، رواه الطبراني في الأوسط ٨/ ٢٦٧ (٨٥٩٧).

(٣) تقدم الحديث صفحة (١٠٢).

(٤) الشطر الأول من الحديث لم أجده في المصادر التي بين يدي، أما قوله: «ومن قال: أنا في الجنة. . .» فقد ذكره ابن الجعد في مسنده (٣١٤٧) عن الحسن عن النبي ﷺ، وهو في أخبار قزوين ٣/ ٤٩٥ عن عليٍّ عن النبي ﷺ، وفي ميزان الاعتدال ٣/ ٤٥٠ ضمن ترجمة ضرار بن عمرو؛ عن الحسن عن أنس عن النبي ﷺ، وهو في المعجم الصغير (١٧٦) من قول يحيى بن أبي كثير، وسنده ضعيف. وانظر الحاشية (٢) صفحة ٥٤٧.

(٥) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) في الرقاق، باب التواضع، وابن حبان في صحيحه ٢/ ٥٨ (٣٤٧).

علامةُ محبّةِ الحقِّ جلَّ ذكرُه تركُ جميع ما يكون شاغلاً عن محبّتِهِ، ليبقى المحبُّ، ويشغل الحق.

علامة القلبِ المريض أربعةٌ: الأول: أن لا يجد حلاوةَ العبادة. والثاني: أن لا يكون خائفًا من الله تعالى. الثالث: أن لا يعتبر عن الأشياء. الرابع: أن لا يفهم من العلم ما سمع.

علامةُ وصول الشخص إلى مقامِ العبودية أن يكون مخالفًا للهوى، وتاركًا للشهوات.

العبوديةُ أن تكون عبدَهُ في كلِّ حالٍ، كما أنه إلهُكَ في كلِّ حالاتك.

العلمُ موجودٌ والمقصودُ منه العمل، والعملُ موجود والمقصود منه الإخلاص، والحب موجود والمقصود منه الصدق فيه[1].

توبةُ العوام من الذنوب، وتوبةُ الخواص من الغفلة.

التوبة على قسمين: توبةُ إنابةٍ، وتوبةُ استجابة.

توبةُ الإنابة هي: أن يتوبَ العبدُ من خوف العقاب.

وتوبةُ الاستجابة هي: أن يتوبَ استحياءً من كرم الله تعالى.

لكلِّ عضوٍ من الأعضاء توبةٌ:

فتوبة القلبِ العزمُ على ترك الحرام.

وتوبةُ العين إغماضُها عن المحارم.

وتوبةُ اليدِ تركُ أخذ الحرام.

وتوبة الرِّجْلِ تركُ المشي إلى الحرام.

وتوبةُ السمع تركُ استماع الحرام.

وتوبة البطن تركُ أكل الحرام.

وتوبةُ الفرج الاحترازُ عن الفواحش.

---

(١) كذا في (أ)، و(ب). وكأن في الأصل نقصاً، ولعلّ الكلام: منه الإخلاص، والإخلاص موجود والمقصود منه الحب، والحب موجود والمقصود منه الصدق، والصدق فيه.

التوبةُ رقيبُ العمل[١]، والرجاء شفيعٌ محسنٌ.

ينبغي أن يكون الخوفُ أقوى من الرجاء، فإنّه إن غلبَ الرجاء شوّشَ.

ذكرُ الله تعالى غذائي، وثناؤه شرابي، وحبُّه لباس روحي.

الحياء هيبةُ القلب مع الوحشة عمّا جرى عليه.

الخوفُ مقلق التقوى، لا يلوّثُ ظاهرُه بالمعاصي[٢]، وباطنه بالفضول، ويكون قائمًا مع الله تعالى على هذا الطريق.

الصادقُ من يكون لسانُه ناطقًا بالصواب والحق.

الصدقُ سيفُ الله، ولا يمرُّ سيفُ الله على شيءٍ إلاّ قطعه.

الوجدُ سرٌّ في القلب.

التوكّلُ هو الخروج عن طاعة الآلهةِ الكثيرة، والاشتغالُ بطاعة ربٍّ واحدٍ، والانقطاعُ عن الأسباب. قيل: زد. قال: الاتصافُ بوصف العبودية، والخروجُ عن دعوى الربوبية.

التوكّلُ تركُ التدبير، والخروجُ عن القوة والحيلة.

الأنس هو التوحُّشُ عن الدنيا والخلق إلاّ عن أولياءِ الله تعالى؛ لأن الأُنسَ مع أولياء الله تعالى في الحقيقةِ أنسٌ مع الله تعالى.

إذا رزقَ اللهُ تعالى الولايةَ إنسانًا فكأنّه يُخاطبه في الجنة بلسانِ النور، وإذا أناله هيبةً فكأنه يُخاطبه في الجحيم بلسان النار.

أقلُّ مراتب الأنس بالله، أن لو أُحرقَ صاحبُ الأنس بالله تعالى بالنار لم يغب عنه طرفةَ عين.

علامةُ الأنُس أن تكون مُستوحشًا من الخلق، مُستأنسًا بنفسك، وإن كنت مُستأنسًا بالخلق تكون مُستوحشًا عن نفسك ألبتّة.

---

(١) في (أ): التوبة رفيق العمل.

(٢) في (ب): لا يكون ظاهره بالمعاصي.

مفتاح العبادة الذكر، وعلامةُ الوصول مخالفة النفس والهوى، وعلامةُ المخالفة تركُ الأماني.

من داومَ على الفكر بالقلب يَرى عالمَ الغيب بالروح.

الرِّضا سرورُ القلب بمرِّ القضا.

الرضا تركُ الاختيار قبلَ نزولِ القضاء، وفقدانُ المرارة بعد القضاء، والموافقةُ مع الحبيب في عين البلاء.

قيل: من الأعرفُ بنفسه؟ قال: الذي يكون أَرضى بما قُسم.

لا يتمُّ الإخلاص إلاّ بالصدق فيه، والصبرِ عليه، والصدقُ لا يتمُّ إلاّ بالمداومة عليه.

علامةُ الإخلاص ثلاثة: الأولى: أن يكون المدحُ والذمُّ عنده سواء. الثانية: أن ينسى العملَ. الثالثة: أن لا يرى لعملِهِ ثوابًا في الآخرة.

ما رأيتُ شيئًا أشدَّ من الإخلاص.

في الخلوة ما يُرى بالعين فهو مَنسوبٌ إلى العلم، وما يُرى بالقلب فهو منسوبٌ إلى اليقين.

علامة اليقين ثلاث: النظرُ إلى الحقِّ في كلِّ شيءٍ. والرجوعُ إليه في كلِّ حال. والاستعانةُ به في كلِّ شُغلٍ.

اليقين يدعو إلى قِصَر الأمل، وقصرُ الأمل يدعو إلى الزُّهد[1]، وهو إلى الحكمة، وهي تورثُ النَّظرَ في عواقب الأمور.

الصبر ثمرةُ اليقين.

قليلٌ من اليقين خيرٌ من الدنيا؛ لأن اليقينَ يرغّبُ القلبَ إلى الآخرة، وبقليلٍ من اليقين يُطالعُ ملكوتَ الآخرة.

---

(١) في (ب): اليقين يدعو إلى الزهد، وهو إلى الحكمة....

من استأنسَ بالخلقِ سكن على بساط الفراعنة.

المدّعي محجوبٌ بدعواه عن الرغبة إلى الحقِّ وإلى الكلام الحق[١]، فإنَّ الدعوى علامة المحجوبين.

لا يكونُ المُريد مُريدًا إلا بعد أن يكونَ امتثالُهُ لكلامِ شيخه أكثرَ من امتثاله لكلام الله تعالى[٢].

من وافق الله تعالى في خطرات قلبه عظّمه اللهُ تعالى في حركاته الظاهرة.

من خاف من الله تعالى هربَ إليه، ومن هربَ إليه يحصلُ له مرادُه، ويحصل له النجاةُ، ويصيرُ كبيرَ الشأن.

و: من توكّلَ على الله تعالى استقام.

و: من تكلّفَ في شيءٍ لا يعنيه، ضاعَ عنه ما يعنيه.

من خاف الله استحكم في قلبه محبَّتُهُ، ويكملُ عقلهُ.

من طلب عظيمًا فخطرُهُ عظيم.

من يكون تأسُّفُهُ على الله قليلاً ـ أي على ترك تعظيم الله تعالى في السرِّ والعلن ـ فقدرُ الله تعالى عنده قليل.

من يدلُّكَ ظاهرُهُ على باطنه فلا تصاحب معه.

لا تحزنْ على المفقود، وذكرُ المعبودِ موجود.

---

(١) في (أ): المدعي محجوب بدعواه عن الحق، وعن الرغبة إلى كلام الحق.

(٢) أعوذ بالله العظيم، اللهم إياك نعبد وإياك نستعين. أقول: ولعله يريد أن امتثال كلام الشيخ الذي يُفسّرُ له كلام الله من لغة وبيان، ويهديه لما فيه من حلال وحرام، وناسخ ومنسوخ يوصله إلى الله تعالى، أما امتثال كلام الله مباشرة دون إحاطة بعلوم الآلة، ودون دليلٍ عارفٍ ربما أوقع المُريدَ بإشكالٍ وخطأ لا يريده أصلاً. والله أعلم. وانظر قوله (إن عرفت الله..) صفحة ١٨٠.

من ذكرَ الله تعالى على الحقيقة نسي كلَّ شيءٍ في جنب ذكره، ويكون اللهُ تعالى له عوضًا عن كلِّ شيءٍ.

قيل له: بمَ عرفتَ الله تعالى؟ قال: بالله، وعرفتُ الخلقَ بمحمد ﷺ

قيل له: ما تقولُ في الخلق؟ قال: كلُّهم في الوحشة.

ذكرُ الله بين أهل الغفلة غفلة.

قيل: من تصاحب؟ قال: من لا يُنكرك بحال، ولا يتغيَّرُ بتغيُّرك، وإن كان تغيُّرُكَ عظيمًا.

قيل: متى يسهُلُ طريق الخوف؟ قال: إذا عدَّ الشخصُ نفسَه مريضًا، ثم احتمي من خوفٍ طول المرض.

قيل: العبدُ بأيِّ شيءٍ يستحقُّ الجنة؟ قال: بخمسة أشياء: استقامةٍ لا يكونُ فيها حيلة. واعتمادٍ لا يكون فيه سهوٌ. والموافقةِ مع الله تعالى في السرِّ والعلانية. وانتظارِ الموت، والتَّهيُّؤِ له. ومحاسبةِ النفس قبل يوم الحساب.

قيل له: ما علامةُ الخوف؟ قال: أن يجعلَكَ الخوفُ آمنًا من كلِّ خوف.

قيل: من أَصونُ من الناس؟ قال: من هو أحفظُ للسانه.

قيل: ما علامةُ التوكّل؟ قال: قطعُ الطمع عن الخلق.

ثم سُئل عن التوكّل، قال: خلعُ الأرباب، وقطعُ الأسباب.

فسئل عن العزلة، متى تصحُّ؟ قال: إذا اعتزلت عن نفسك.

قيل: من أكثرُ الحزن من الخلق؟ قال: من يكون سيِّئَ الخلق.

قيل: ما الدنيا؟ قال: ما شغلك[1] عن الحقِّ.

قيل: من الخسيس؟ قال: من عرفَ طريق الحقِّ ولم يسلكه.

---

(١) في (أ): التي تشغلك عن الحقِّ.

قال يوسف بن الحسين: سألتُه عن الصاحب[١]، قال: خيرُ الصاحب من لا يكونُ بينك وبينه أنا وأنت وهو.

وقال أيضًا: قلت له: أوصني. قال: خاصمْ نفسَك لله، ولا تخاصم الله لنفسك، ولا تحقّر أحدًا وإن كان مُشركًا؛ لعلّه يصيرُ عاقبة الأمر صاحبَ المعرفة والوصلة بالمقصود.

قيل: استوصى منه شخصٌ، فقال: اتركْ باطنك للحقِّ، ودع ظاهرَكَ للعشق، وفرَّ إلى الله تعالى؛ فإنَّ الله تعالى يجعلُكَ غنيًا عن الخلق.

واستوصى منه آخرُ، فقال: لا تخترِ الشكَّ عن اليقين، ولا ترضَ عن شيءٍ إلاّ إن سكن في مقام اليقين والعبودية.

واستوصى منه آخر، قال: إن توجّه إليك بلاءٌ، فاجعلِ الصبرَ شعارَك، ولازمْ في جميع حالاتك بابَ العبودية.

واستوصى منه آخر قال: لا تبعثْ همَّتَكَ إلى خلفك وقدامك. قال السائل: اشرح هذا الكلام. قال: لا تحزنْ لما فات، ولِمَا لَمْ يأت، واشتغلْ في الحال بصالح الأعمال.

قيل: من الصوفي؟ قال: من لا يَرى اللهَ تعالى إلاّ جميلاً، ومن اللهِ إلاّ جميلاً، ولا يرى منه وإيّاه إلاّ الجميل.

قال له شخص: دلّني على الحقِّ. قال: إن تطلبِ الدلالة، فلا حصر لها، وإن تَطلبِ القُربَ ففي القدمِ الأول.

قال له شخصٌ: أنا أحبُّك. قال: إن عرفتَ الله تعالى فهو حسبُكَ، وإن لم تعرفْهُ فاطلب شخصًا يدلُّك عليه.

سئل عن نهايته، فأجابَ بما أجابَ[٢] به حين سُئل عن أوّلِ درجةٍ يتوجَّه

---

(١) في (أ): سألته عن المصاحبة.

(٢) في (أ): عن نهاية، فأجاب مثلَ ما أجاب به.

إليها العارفُ حيثُ قال: التحيُّرُ، ثم الافتقارُ، ثم الاتصال.

قيل له: ما عملُ العارف؟ قال: هو أن يكون ناظرًا إلى الحقِّ في جميع الأحوال.

وسئل في مرضِ موته: هل تشتهي شيئًا؟ قال: نعم، أن أعرفَ الله تعالى قبل موتي ولو بلحظةٍ.

أقول: يدلُّ هذا الكلام على أنّه ما عرفَ الله، والمرادُ أنّه ما كان عارفًا بالله حقَّ معرفته، ومصداقه ما رُوي عن النبيِّ عليه السلام أنه كان يقول في مناجاته: «سبحانك، ما عرفناك حقَّ معرفتك»[1] وما روي عن بعض العارفين.

اعتصـــام الـــورى بمعـــرفتـــكْ عجـزَ الـواصفـون عـن صفتـكْ
تـــبْ علينـــا فـــإننـــا بشـــرٌ مـا عـرفنـاكَ حـقَّ معـرفتـكْ

[والله أعلم].

ثم قال:

الخوفُ أَمرضني والشوقُ أَحرقني والحـبُّ قتّلنـي[2] والله أحيـانـي

ثم غشي عليه يومًا.

قال يوسف بن الحسين: استوصيتُهُ في حين وفاته، فقال: صاحبْ شخصًا تكون سالمًا عنه في الظاهر، ومصاحبتُهُ تكونُ باعثةً لك على الخير، ويذكّرك الحقَّ.

قيل له حال النزعِ: أوصنا. قال: لا تشغلوني؛ فإنّي مُتعجِّبٌ في إحساناته. وتوفّي إلى رحمة الله تعالى.

وفي ليلة وفاته رأى سبعون شخصًا النبيَّ ﷺ في المنام أنّه قال: انتقل وليُّ الله ذو النون عن دار الفناء إلى دار البقاء.

---

(١) انظر الحاشية (١) صفحة ٥٤٧.

(٢) الأصل الفارسي، والترجمة العربية: والحبُّ أصفدني.

حضرنا استقبالاً له، فلمّا توفّي ظهرَ على ناصيته خطٌّ أخضرُ: هذا حبيبُ الله، قتيلُ الله تعالى في حبِّ الله.

وحين رُفعت جنازتُهُ، وكان وقتَ الهاجرة في غاية الحرِّ، جاءت طيورٌ كثيرةٌ وبسطت أجنحتها فوق جنازته، وأذهبوا جنازتَهُ إلى القبرِ في الفيء.

وسمعوا في الطريق مؤذّنًا يؤذّنُ، فلمّا وصلَ إلى كلمة الشهادة، رفعَ ذو النون مُسبِّحتَهُ، فظهر في الناس غوشٌ عظيم، وقال بعضُهم: إنّه حيٌّ، وفتّشوا عنه، فوجدوه ميتًا، وبقيت مُسَبِّحتُهُ مرفوعةً، وندم من كان يؤذيه في حالِ الحياة.

إلهنا ومولانا أدرجنا في جملة أوليائك، واحشرنا في زمرة أصفيائك، واجمع بيننا وبين أتقيائك في دار النعيم بحرمتك وبحرمة أحبابك ورسلك وأنبيائك، يا أرحم الراحمين، وأكرمَ الأكرمين

❊ ❊ ❊